مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-046
المجلد6 ، العدد13، (مارس 2018) EISSN : 2600-6421

الجوانب السلبية لجهود المستشرقين
مقاربة في بعض القضايا اللغوية

الدكتور: حمداد بن عبد الله
جامعة الدكتور مولاي الطاهر-سعيدة

ملخص:

لقد حاولت من خلال هذه المقاربة الوقوف على ظاهرة الإستشرق التي كان لها الأثر العظيم في العالم الغربي، وفي العالم الإسلامي على السواء. وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. وقد شرعت في بداءة هذا البحث في حد هذا المفهوم من حيث اللغة والاصطلاح، إذ لا مشاحة في الألفاظ والمصطلحات. وقد تبين لنا من خلال التنقيب والتحميص، والتحليل لهذه الظاهرة أن المواقف الإستشراقية إزاء تراثنا العربي بشكل عام، واللغوي على وجه الخصوص قد اشتملت من غير ريب على بعض الجوانب الإيجابية التي يجب أن تذكر لبعضهم نحو جمعهم للمخطوطات وصيانتها، ووصفها وفهرستها، ووضعهم لدائرة المعارف الإسلامية التي غرف من معينها علماء العرب، كما كان لهؤلاء باع طويل في مجال المعجمية، وهو ما لمسناه عند فيشر. وقد تطرقت في هذه الدراسة للوجه الآخر لهم المتمثل في موقفهم السلبي من التراث العربي، وذلك مثل تشكيكهم في أصالة النحو العربي، وأنه تأثر بالفكر اليوناني علما أن هذه الفرضية لا تقوم على دليل علمي، كما ألمحت الى ذللك في تضاعيف المقال. ومن آرائهم أيضا في هذا النطاق نفيهم لظاهرة الإعراب، وإنكارهم لوجودها أصلا في لغة الضاد رغم أنها صفة من صفات العربية، وسمة من أقدم سماتها اللغوية. كما اهتم هؤلاء بكتب اللحن دراسة وفحصا، وذلك من أجل الدعوة إلى العاميات على حساب الفصحى واصفين هذه الأخيرة بالتعقيد والصعوبة، وعدم مواكبتها مستحدثات العصر. وقد استطعنا من خلال معالجتنا لهذه الإشكالية تفنيد مزاعم هؤلاء وتقويضها بأدلة علمية لا يرقى إليها الشك من لدن مفكرين عرب، وبعض المستشرقين أنفسهم.

Résumé

J'essaye à travers cette approche d'étudier le phénomène de l'orientation qui a eu grand impact aussi bien sur l'occident que sur le monde musulman et qui suscité des réactions de part et d'autre .
J'ai commencé au début de cette étude par cerner le sens de l'orientalisme du point de vue linguistique et conceptuel. Nous avons montré à partir de l'analyse de ce concept que les attitudes des orientalistes envers notre héritage culturel arabe en général et linguistique en particulier ont des aspects positifs et négatifs qu'il convient de mentionner. Parmi les aspects positifs, les orientalistes ont collecté des manuscrits qu'ils ont décrits, indexés, catalogués et préservés. Ils ont mis ces manuscrits dans un cercle de connaissances arabo-musulmanes d'où à puisé un grand nombre de savants arabes. Ils ont aussi participé à l'enrichissement de la lexicographie. Ce que nous avions remarqué par exemple chez Fisher .

J'ai aussi soulevé dans cette étude les aspects négatifs de l'orientation vis-à-vis du patrimoine immatériel arabe. Les orientalistes ont émis des doutes sur l'authenticité de la grammaire arabe. Ils avancent la thèse que cette grammaire a été influencée par la culture grecque. Cependant, comme je le montre dans cet article, cette thèse ne repose sur aucune preuve scientifique tangible. Un autre aspect négatif de l'orientalisme est la négation de l'authenticité de l'étude morphologique et syntaxique (IRRAB) en dépit du fait qu'elle est une des caractéristiques de la langue arabe. L'orientalisme s'est aussi intéressé à déceler les erreurs grammaticales de l'arabe classique pour revaloriser le dialecte. Pour les orientalistes l'arabe classique est complexe et incapable de suivre les exigences contemporaines.

En définitive, nous pouvons dire que nous avons soulevé cette problématique pour dénoncer ces allégations mensongères qui ont été réfutées par des savants arabes et par certains orientalistes.

يمثل الاستشراق تلكم الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه، وتاريخه وعقائده، وتشريعاته بوجه عام. وقد ارتأيت قبل الولوج في مقاربة هذا الموضوع الشائك أن أقف عند مفهوم الاستشراق أسبر من خلال ذلك معناه اللغوي والاصطلاحي، فضلاً عما تكتنفه مقوله: "إنه لا مشاحة في الألفاظ والمصطلحات" من ظلال دلالية.

مفهوم الاستشراف لغة واصطلاحاً:

1-**الاستشراق لغة**: وهو على وزن استفعال من مادة شرق: شَرَقت الشمسُ تشْرُق شروقاً وشرقاً: طلعت. مصدر استشرق وهذه الصغة الصرفية من معانيها الطلب، لكنّ اللفظة لم توجد في المعاجم العربية لهذا المعنى[1]، لأنه معنى محدث، وفي الواقع إن كلمة استشراق هو طلب الشرق.

2-**الاستشراق اصطلاحاً**: لقد اختلف الباحثون في حد المعنى الاصطلاحي لهذا المفهوم ومناط هذا الاختلاف يؤول إلى الغرض منه، وما الغاية المتوخاة منه؟ فقد أورد في هذا السياق إدوارد سعيد: « الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه، وامتلاك السيادية عليه»[2].

كما ذهب الباحث محمود شاكر إلى أن الأمر محاولة لهيمنة المسيحية الشمالية كما أسماها على البلاد الإسلامية[3]. وكان حد أحمد غراب يتسم بشيء من الشمولية موازنة بالحدود السابقة، فهو يقول: « إن الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب: عقيدة وثقافة، وشريعة، وتاريخاً ونظماً، وثروات وإمكانيات بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليه، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي»[4]. وهذا الدكتور مازن مطبقاني يقترح تعريفاً يضيف إلى تعريف غراب بعض الزيادات، وتفرع ليشمل نطاقاً أوسع يشمل مساحات أخرى[5]. كما حاول كلّ من إدوارد سعيد والمفكر الجزائري مالك بن نبي وضع تعريف يقترب من التعريف الذي وضعه القاموس الفرنسي الذي حدد مفهومه بأنه مجموعة المعارف التي تتعلّق بالشعوب الشرقية ولغاتهم، وتاريخهم وحضارتهم، وفي المجاز يعني عندهم تذوّق أشياء الشرق[6].

أما في البيئة الغربية فقد ذهب رودي باريت إلى أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولا بد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي عليه كلمة الاستشراق المشتقة من كلمة ''شرق''... وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي»[7]. أما معجم أكسفورد الجديد فقد عرّف المستشرق orientalist بأنه: «من تبحّر في لغات الشرق وآدابه وذلك هو التفسير»[8]. والحقيقة التي لا مراء فيها أن هذه القضية تتناقض

حولها الآراء في عالمنا العربي الإسلامي فهناك من يؤيده، ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين. «والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد، ولهذا فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة، وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج، وطرح الحلول واقتراح البدائل»[9].

ولقد كانت المواقف الاستشراقية في هاذا الصدد تشتمل من غير شك على بعض الجوانب الإيجابية التي يجب أن تذكر لهم كما تتمثل في المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التي يجب أن تسجل عليهم، وحتى نكون موضوعيين في هذه المقاربة فإنه لا بد لنا من الإشارة إلى إيجابياتهم قبل الوقوف على السلبيات بالدرس والبحث والتمحيص والاستنتاج. وفي بداءة الحديث يحسن بنا الاستشهاد بقول الشيخ أمين الخولي بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين: « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي، وإني أشك في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات، وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها»[10]. وقد جمع هؤلاء المخطوطات العربية من كل مكان، وبثتى السبل، وعملوا على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً. وهكذا تكون قد وُضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين، أو إجراءات معقدة. وقد كانت دائرة المعارف الإسلامية - رغم للمسلمين عليها من مآخذ- ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. ولا يزال الباحثون العرب وغيرهم يغرفون من معينها، ومثل هذه الدائرة كمثل مؤلف المستشرق بروكلمان الموسوم بـ "تاريخ الأدب العربي"، وهو كتاب أساسي في الدراسات العربية لا يستغني عنه باحث في الدراسات العربية والإسلامية. وهذا الكتاب لا يكتفي بالأدب العربي وفقه اللغة، بل يتناول كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية، فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها والمطبوع. كما كان للمستشرقين باع طويل في مجال المعجمية، وقد نذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة فضلاً عن مسند الدارمي وموطأ مالك، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، ونومئ في هذا الموضع إلى الجهد الذي بذله فيشر في معجم اللغة العربية القديمة مرتباً على المصادر، فقد قضى هذا الرجل أربعين عاماً في جمعه وتنسيقه،

وتعاون معه عدد من المستشرقين. ولا يغرب عن الذهن اضطلاع هؤلاء بنشر الكثير من أمهات كتب التراث، ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية الإسلامية إلى كافة اللغات الأوربية بصبر منتهى النظير.

دراسة المستشرقين السلبية للتراث اللغوي:

لعلنا نذكر في هذا الموضع من البحث مع الباحث عبد النبي أصطيف أن المناقشة الحالية مناقشة داخلية تخص الساحة الثقافية الغربية بالدرجة الأولى، وقد ألمح هذا الباحث إلى المسألة من ناحية الشرق فذكر: « إن الاستشراق اليوم يخضع لعملية نقد أساسية من قبل المستشرقين أنفسهم، وإذا كانوا هم أنفسهم - أو جملة صالحة منهم، وخاصة من المستشرقين الشباب- لا يعتقدون بعصمة هذا التقليد الثقافي العريق، ويعملون مباضعهم فيه ليطهروه من الكثير مما علق فيه من أهواء ونزعات، وتضمنات عرفية وعنصرية وإيديولوجية، فإن من الغفلة أن يقبله الداخليون هكذا دون تمحيص»[11]. وهكذا لا نعدم الموقف السلبي لبعض هؤلاء ونظرتهم الدونية إلى لغة الضاد، ومن أجل الوقوف على هذه المسألة الحساسة، وكشف مغالطاتهم ارتأيت أن تكون الدراسة حول ثلاثة محاور هي:

1-تشكيك هؤلاء في أصالة النحو العربي.

2-إنكار بعضهم لظاهرة الإعراب.

3-اهتمامهم بكتب اللحن والدافع إلى ذلك.

أولاً: التشكيك في أصالة النحو العربي.

لقد وصف الباحث اللغوي الجزائري الشهير عبد الرحمن الحاج صالح بحوث بعض المستشرقين فقال: « والغريب المقلق أن هذه البحوث ألبست لباس البحث النزيه التي تنفي كل طرافة للمناهج العربية في النحو، وتنكر أن يكون النحاة العرب أخرجوا شيئاً جديداً... وذهبوا يقارنون بين مصطلحاتهم، وما تواضع عليه اليونان من قبلهم في علم النحو، ورأوا في تقسيم العرب للكلام تقسيماً أرسطوطاليسياً محضاً»[12].

ولعلنا نقول في هذا السياق: لقد ذهبت ثلة من المستشرقين-فيما يتعلق بأصالة النحو العربي- إلى وضع فرضيات تتصل بهذه القضية الشائكة ومنها الفرضية اليونانية، والفرضية السريانية، وكذا الهندية. ولقد كان المستشرق مركس المؤرخ للفرضية الأولى، إذ كانت أبحاثه أكثر شهرة حيث قرّر أن العرب تأثروا في نحوهم باليونانيين من خلال السريان، « فقد عرف النحاة السريان أفكار ثراكس وغيره من النحاة اليونانيين، وقد

وصلت أفكار السريان إلى النحاة العرب، وللتأكيد على زعمه قرر وجود علاقة ما بين المصطلحات والمفاهيم النحوية العربية والفكر اليوناني»[13]. وفي السبعينات من القرن العشرين بدأت الفرضية اليونانية تطل علينا مرة أخرى من خلال روندجرين وفرستيج، ومن بعدهم جاء رافي طلمون، وقد قرر روندجرين أن التأثير اليوناني في النحو العربي يرجع إلى مرحلة ما قبل ترجمة العلوم اليونانية للعرب، مشيراً إلى أن المعرفة بالمنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية وصلت إلى العرب من خلال الترجمات الفارسية التي صنعت في أكاديمية جنديشابور[14]. وإن المتأمل في هذا الزعم أو هذه الدعوة المتمثلة في أن أصالة النحو العربي وبداية نشأته تأثرت بفكر يوناني عن طريق ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية يألفها محفوفة بالشك والارتياب,وذلك أن النحو العربي يقوم على نظرية العامل، وهي لا توجد في أي نحو من الأنحاء الأجنبية على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف في مؤلفه "المدارس النحوية"[15]. كما أشار الدكتور تمام حسان في هذا السياق في كتابة "الأصول" إلى أن الثقافة العربية مرت بطورين: الطور الأول ما قبل الترجمة حيث كان النحو أصيلاً، لم يتأثر البتة بالفلسفة اليونانية أو المنطق اليوناني، أما الطور الثاني فهو عصر المأمون حيث تسربت الثقافة اليونانية إلى العرب، وذلك بدءاً بالفراء المتوفى سنة 207هـ، وانتهاء بأبي علي الفارسي وابن جني في نهاية القرن الرابع[16]. وذهب د.إبراهيم السامرائي في هذا النحو راداً على المستشرق فيشر أنه فات هذا الأخير أن اليونانية تختلف نحواً وطبيعة عن العربية، ولم يكن واضع النحو صارفاً أو متأثراً باليونانية بأي وجه من الوجوه[17]. ولعلّ عبقرية سيبويه ووضعه لكتابه "الكتاب" هو الذي أغرى هؤلاء المستشرقين مما جعلهم يذهبون إلى الطعن في أصالة النحو العربي. وقد أومأ إلى ذلك الدكتور عبد العال سالم مكرم فذكر: « وقد كان منشأ هذه الحيرة، وهذا التعجب هو كتاب سيبويه، إذ كيف يولد كتاب سيبويه عملاقاً من دون أن يسبق بمراحل نمو وتطوّر تؤدي إلى ولادته ولادة طبيعية»[18]. والحقيقة لو أنعم هؤلاء النظر فيها أن انتشار عملية وضع القواعد النحوية كانت بأيدي أوائل القراء وهم في الغالب من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحي بن يعمر، وعنبسة الفيل وميمون الأقرن.

لم يسبق المستشرقون في هذه القضية – أي نسبة النحو العربي إلى اليونان- أحد من الأناسي فهم أول من أثارها، وطعنوا في نسبة هذا العلم الجليل لكننا وجدنا بعضهم يعترضون على هذه الفرضية ويدلون بدلوهم فيها. وقد ارتأى في هذا السياق بعض

المستشرقين الألمان أن النحو العربي أصيل النشأة والبيئة، وردوا فيها حتى على بعض العرب الذين قالوا بالتأثر، ومن أبرز هؤلاء ليتمان إذ يورد قائلاً: « ونحن نذهب في هذه المسألة مذهباً وسطاً، وهو أن العرب ابتدعوا علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو، والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف. قال سيبويه: « فالكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلي»[19].

كما أشار الأستاذ كارتر إلى أن المستشرق الألماني (G.H.A. Ewald) رفض الزعم الشائع آنذاك في سنة 1830م القائل بأن النحو العربي مأخوذ من اليونان بواسطة السريان، ويرى أن هذا الافتراض أسِس بجهل[20].

ولقد كان من أشهر أولئك المستشرقين المنصفين أرنست رينان الذي يؤكد أصالة النحو العربي، فمن ناحية تقسيم الكلام عند النحاة العرب إلى اسم وفعل، وحرف فهو أصيل، ذلك أن العرب في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب، وغيرهما كان علماؤهم متأثرين باليونانيين، وينوه هذا المستشرق على ذلك من خلال المصطلحات، والذي يوجد فيها عدد مقترض من اليونانية، ويصل من خلال ذلك إلى أنه لو كان العرب اقترضوا شيئاً في النحو العربي لظهر في مسميات المصطلحات، فالذي في العلوم الأخرى غير موجود في النحو والبلاغة، فأسماء هذين العلمين، ومصطلحاتهما وتقسيماتهما ومحتوياتهما العامة عربية، أما العلوم الأخرى فالعرب عرفوها عن علوم اليونان القديمة[21]. وقد حاول المستشرق المجري جولدزيهر في هذا السياق انتقاد نظرة رينان إلى هذه القضية، وذلك أن هذا الخبر لا يبرهن على قوله ورؤيته، ويكون الأمر من وجهة نظر جولدزيهر أن العرب أخذوا من اليونان والسريان الفلسفة، والعلوم الطبيعية، والرياضيات وعلوم التقنية التي لا يمكن اختلافها من أمة إلى أخرى، لكن لا أحد يمكن أن يفترض أنهم أخذوا النحو مباشرة[22]. ويصل جولدزيهر إلى أن القضية ليست ما إذا كان النظام النحوي اقترض ولكن القضية هي كيفية وصول العرب إلى المحتويات اللغوية الأساسية في تحليلات أقسام الجمل، وأقسام الكلام، وإلى الوصول إلى تقعيد قواعد، كل ذلك في غياب أي تأثير أجنبي، ويصل من كل ذلك إلى أن العرب لا توجد أصالة في حياتهم ولا في عقليتهم[23]. وقد ارتأى جولدزيهر أيضاً أن العرب لم يطوروا معظم محتويات النحو من خلال نبوغهم، وإنما كان ذلك من خلال السريان.

وكانت أبحاث مركس أكثر شهرة فارتبطت به فرضية التأثير اليوناني في النحو العربي، ويجد هذا المستشرق أدلة حسب زعمه تمثل اعتماد النحاة العرب على الفكر اليوناني من خلال المصطلحات النحوية، وأيضاً من خلال التقسيم الثلاثي للكلم، والذي يجده متعلقاً بالفكر اليوناني، فمصطلح الاسم متعلق بالمصطلح اليوناني Onoma، والفعل متعلق بالمصطلح اليوناني rhéma، والحرف بالمصطلح اليوناني sundesmos، ومع تأكيده ربط هذه المصطلحات بالتراث اليوناني فإنه يؤكد أن هناك تأثيراً في تعريفات سيبويه نفسه لهذه الأقسام.[24]

وفي النصف الثاني من القرن العشرين أي 1972م خصص المستشرق كارتر بحثاً لدراسة جذور النحو العربي مشاطراً رأي رينان في نفي فرضية التأثر بالفكر اليوناني، وقد ذكر أن هذه الفرضية رفضها المستشرق Ewald الذي يقرر ذلك منذ 1830م – وهو ما ذهب إليه رينان- رائياً أن هذا الافتراض أسس بجهل. ومن عرضه لهذه النظرة يصل إلى هدف بحثه، والذي يراه مزدوجاً ذلك أنه لا يريد التشديد على النقص الموجود في الفرضية اليونانية فقط، بل اقترح شروحاً لإعادة تغيير وبناء هذه الفرضية، ليضل إلى النتيجة أنه لو كان صحيحاً أن عناصر مؤكدة من الفكر اليوناني تسربت إلى النحو العربي فإن عدداً كبيراً من المصطلحات الأخلاقية والفقهية موجود في كل كتاب سيبويه الكتاب الأول في النحو العربي، وهذا في رأي كارتر يدفعنا إلى بحث أصول النحو العربي في مصطلحات ومناهج الفقهاء المسلمين[25]. ولعلنا ندحض الرؤية التي تقول بالتأثر مشاطرين مذهب كارتر في هذه القضية بما هو آت:

أ- لم تؤسس الفرضية اليونانية على إرث تاريخي، وتؤكد بدون شك على التعصب الأوربي، فالواضح من ذلك كون اليونان مصدراً لكل الإبداعات العلمية في القرون الوسطى مستندين في هذه الحالة إلى الترجمات التي ترجمت من بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والذي اقترض من خلالها العرب بالفعل أفكاراً من اليونان في علوم مثل الفلسفة والطب والرياضيات والفلك.

ب- عدم قيام هذه الفرضية على بينة مقنعة، وذلك بذهاب هؤلاء أن التأثير جاء من خلال الوسطاء، وقد ردّ كارتر على ذلك فذكر أن الأدب السرياني متعلق في تعاليمه بالأفكار اليونانية، كما أنه معروف أن النحو السرياني مقنن من خلال النحوي يعقوب الرهاوي المتوفى سنة 708هـ، ويشير إلى أننا لم نجد أي ذكر ليعقوب هذا ولا لغيره من

النحاة السريان الآخرين في كتب السير العربية. كما يذكر أن ابن النديم صاحب كتاب "الفهرست" لم يذكر أية علاقة بين النحو اليوناني والنحو العربي[26].

ج- أما عن مسألة الترجمة فلا يغرب عن الذهن أن العرب ينتمون إلى حضارة لها سياقها الثقافي المختلف عن الحضارة اليونانية، والترجمة في هذه الحال تكون صعبة للغاية إذا ما قسنا فترة نشأة العلوم العربية الإسلامية التي هي لن تكون بعيدة عن النصف الأول من القرن الثاني الهجري، علماً أن هذه الفترة لم يكن لدى العرب الكثير ممن يجيد لغة أخرى كاليونانية، وإذا وُجد من يتكلمها فلن يكون في الغالب عالماً في الفكر اليوناني، وإذا وجد من يعلم لن تكون اللغة العربية في ذلك الزمن اللغة السهلة الطيعة التي نجد فيها الكلمات المتكافئة علمياً مع ما هو موجود في اللغة اليونانية. فعملية الترجمة ليست بالعملية الهينة البسيطة التي من اليسير على فرد ما القيام بها، ثم الاستفاقة منها. والذي نلمحه إذا ما عدنا إلى العرب وتراثهم أنّهم احتكوا بالتراث اليوناني من خلال مشروع الترجمة العظيم في العصر العباسي، ثم تلت ذلك عملية الفهم والاستيعاب، والتمثيل في مضمار الفلسفة، فقد ألفينا أمثال الكندي والفارابي وابن سينا الذين جاءوا بعد مشروع الترجمة، وبعد فهم ما يترجم لتأتي عملية الإبداع من خلالهم[27]. أما ما جاء بين دفتي "الكتاب" لإمام النحاة سيبويه من حيث الفكر فقد كان نقياً، وبعيداً عن التأثر بالفكر اليوناني، وقد ذهب في هذا المتجه رافي طلمون رغم ترجيحه للفرضية اليونانية، فارتأى أن فكر سيبويه لم تفلح أي محاولة في التأكيد على وجود صلة بينه وبين الفكر اليوناني، وقد أثبت هذا الاختلاف بين كتاب "الكتاب" لسيبويه، وكتب النحاة اللاحقين له. وعندما تنقشع الحقيقة العلمية تفرض علينا الحذر في الخوض في الكلام عن التأثير والتأثر في العلوم من حضارة إلى أخرى، ذلك لأن هناك تشابهات كثيرة بين كثير من النقاط العلمية بين علم في حضارةٍ ما وآخر في حضارةٍ أخرى، ولا يكون التشابه مؤكداً لتأثير أحدهما في الآخر، فقد يوجد في هذه الحال ما يسمى توارد الأفكار أو الخواطر ليس إلا.

ثانياً: إنكار بعض المستشرقين لظاهرة الإعراب.

لما كان النحو وعلم الإعراب صنوين إذ كان الثاني لب الأول، وعليه مداره، لم تسلم ظاهرة الإعراب - هي الأخرى- من طعن في أصالتها، وإنكار لوجودها أصالة في العربية قبل نزول القرآن الكريم. والحقيقة أن لغة الضاد قد تميزت فيما تختص به بحركات الإعراب التي هي في واقع الأمر ضرب من ضروب الاقتضاب، إذ يدل بالحركة على معنى جديد غير

معنى المادة اللغوية للكلمة. وفي دراستنا لبعض آراء المستشرقين حول هذه الظاهرة نجد أن بعضهم ذهبوا إلى إنكارها مثل ما نراه عند المستشرق كوهين الذي زعم أن الإعراب لم يكن موجوداً في العربية محتجاً بحجج منها:

أ- أن جميع اللهجات العربية العامية المتشعبة من الفصحى، والمستخدمة الآن في البلاد العربية مجردة من الإعراب.

ب- أن هذه القواعد الدقيقة المتشعبة لا يمكن أن تكون قد نشأت من نفسها، ولا أن تكون قد صدرت عن عقول ساذجة كعقول العرب في العصور الأولى، فلا بدّ أن تكون قد اخترعت اختراعاً.

ج- أن هذه القواعد المتصفة بهذه الدقة والتشعب والشمول، لا يمكن أن تكون مراعاة في الحديث آنذاك[28]. وقد ردّ المستشرق الألماني الشهير يوهان فك على زعم كوهين فأورد قائلاً: « حركات الإعراب صفة من صفات العربية، وسمة من أقدم سماتها اللغوية»[29]. كما عقد كارل بروكلمان ضمن مؤلفه "فقه اللغات السامية" مبحثاً لحالات الإعراب في تلك اللغات رجّح فيه وجود الإعراب بعلاماته المشهورة للرفع والجر والنصب في السامية الأولى، وأشار إلى احتفاظ العربية القديمة بحالات الإعراب الثلاث الرئيسية سالمة[30]. كما أورد أيضا ما نصه: « إن النحو العربي صدر عن روح عربية خالصة»، ويذكر قول ابن فارس: « الإعراب من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب»... إنه ليس من الممكن إبداء رأي موثوق عن مسألة اتصال علماء العرب الأوائل بنماذج أجنبية نسجوا على منوالها[31]. وهذا المستشرق الألماني برجستراسر يدلي بدلوه في المسألة فيقول: « والإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية، وفي بعضه: الحبشية، ونجد آثاراً منه في غيرها أيضاً، غير أن العربية ابتدعت شيئين: إعراب الخبر والمضاف... والثاني عدم الانصراف في بعض الأسماء»[32]. ولسنا نعجب لكوهين وأضرابه إذا ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد مستدلين بما وهى من الأدلة والبراهين، وإنما نعجب لبعض الباحثين العرب المعاصرين في محاكاتهم لهؤلاء، فقد ادعى د. إبراهيم أنيس أن الإعراب قصة مختلفة، وأن النحاة وضعوها بمهارة وإحكام، فهو يقول: « ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت وتم نسجها بحكمة في أواخر القرن الأول الهجري، أو أوائل الثاني على يد قوم من صناع الكلام ونشأو وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصناً

منيعاً، امتنع حتى على الكتاب والخطباء، والشعراء من فصحاء العربية، وشق اقتحامه إلا على قوم سموا فيما بعد بالنحاة»[33].

ومهما قيل وقيل عن هذه الظاهرة، وما أثير من جدل حولها، وسواء فُقد الإعراب من لغة التخاطب في حقب لاحقة أم لم يوجد أصلاً فيها، يبقى أجلى ظاهرة في الدرس النحوي العربي، وأدق مسألة من مسائله، وبه يجري الفرق بين الدلالات المختلفة، كما أجمع القدماء من النحويين على أصالته في لغة الضاد سوى قطرب محمد بن المستنير، وبفضل الإعراب يستطيع الكاتب أو المتحدث أن يتصرف بالجملة فيراعي دواعي التقديم والتأخير دون أن يبقى أسيراً - للحجرات- النحوية الثابتة، فأنت ما دامت للألفاظ رموزها، تستطيع أن تتصرف في وضعها الموضع الذي يمليه عليك المعنى، أو يشاؤه لك فنك، أو مزاجك أو موسيقى كلامك»[34].

ثالثاً: اهتمام المستشرقين بكتب اللّحن:

يمثل اللحن ذلكم الخطأ في الكلام على الإعراب، وأواخر الكلم، وكذا الألفاظ والتراكيب، و طريقة نطقها. ولذا وجدنا علماء العربية قد انبروا لرد الناس إلى الصواب فألّفوا في النحو واللغة، أو ما عرف لاحقاً بكتب الصواب اللغوي، أو لحن العامة، أو ما أسماه الدكتور مصطفى جواد "قل ولا تقل"، وقد كان همّ الأعلام القدماء من وراء تأليفهم هذا الصنف من المؤلفات إعادة هؤلاء الخارجين عن الفصحى إلى حظيرة اللغة القديمة. كما تعددت كتب اللحن بشكل عام، فاختلفت من حيث عناوينها وترتيبها، ولكنها لم تختلف كثيراً من حيث منهجها ومادتها أو شواهدها، ومن هذه الأسفار "التكملة فيما تلحن فيه العامية" للجواليقي، وكان ذلك شأن اللحمي في كتابه "الرد على الزبيدي في لحن العامة". وقد تناولت كتب أخرى أخطاء المثقفين واللغويين أنفسهم، وأشهر من نحا هذا النحو اللغوي ابن شبة عندما ألف كتاب "النحو ومن كان يلحن من النحويين"، ثم أبو هلال العسكري بتأليفه كتاب "ما تلحن فيه الخاصة"، وكذا الحريري بكتابه "درة الغواص في أوهام الخواص". غير أننا لو وقفنا على منتوج المستشرقين في هذا المجال لألفيناهم قد اهتموا بكتب لحن العامة أيّما اهتمام. والأمر العجيب أن القدماء قد ألفوها تنفيراً من اللحن، وليميزوا النقاية من النفاية، بينما نجد هؤلاء ومن اهتم بالعاميات قد قصروا جهدهم على ما رآه الأوائل لحناً، ومن نفاية الكلام وفاسده قائلين بتطور اللغة وعدم إستقرارها وبقائها على حال. فهذا المستشرق توربيكه أول من

جمع قائمة بأسماء كتب لحن العامة، وذلك في عام 1871م، وتم نشرها في مقدمة تحقيقه لكتاب "درة الغواص في أوهام الخواص" للحريري.

ولعلنا نلحظ أن اهتمام المستشرقين بالعامية بدأ مع اهتمامهم بما في كتب "لحن العامة" مما أورده الأولون فساداً مطروحاً، ورآه هؤلاء مادة جديرة بالفحص والدراسة. وقد ذكر جورج كولان الأستاذ في كوليج دو فرانس (Collège de France) متحسراً: « إن الأدب المخصص من طرف نحاة العرب للأغلاط العامة هو من بين المصادر القليلة التي نقتبس منها وضع اللهجات العربية خارج الجزيرة»[35]. وقد جمع هذا المستشرق أيضا ما ألف المغاربة حول لحن العامة في المغرب والأندلس احتفاء بما في تلك الكتب من ذخيرة لغوية مهملة بزعمه. لكننا نسأل هذا المستشرق وغيره من أضرابه، ماذا تقصدون باللهجات؟ فقد ارتأى في هذا السياق د.عبده الراجحي أن اللهجات العربية القديمة ليس درساً للعاميات كما يسبق إلى ظن بعض الذين كتبوا عن هذه اللهجات، فالهمز والتسهيل، أو الفتح والإمالة ليس من العامية في شيء، وإنما هما مستوى من الفصاحة معروف مقرر لدى القدماء.ولذا نقول انه: لا معنى لقولهم فيما أن العاميات كانت موجودة قديماً، وقبلها الأوائل، فلماذا كل هذا الإنكار لها والغض منها؟ فاقبلوها كما قبلوها، وبهذا كانت الدعوة إلى العامية، ونحن نعلم جيداً أن هناك فرقاً بين اللهجة والعامية , وذلك أن مصطلح اللهجة اليوم هو ما أراد به قدماؤنا مصطلح اللغة, و قد أطلق في سياق الفصحى و ليس العامية, وليس إسقاط معنى اللهجة العامية اليوم على ما كان معروفا قديما بلغات العرب.

ويمكن القول: إن الدعوة اليوم إلى العامية إحدى المشكلات التي واجهت العربية، فظاهر الأمر تسهيل وتيسير على الناس والناشئة، وباطنها طعن وكيد لضرب اللغة والدين والوحدة، فالهوية والإنية. وقد أعطت الحركة الاستشراقية في هذا المساق العامية صفة اللين والسهولة، والقدرة على تلبية رغبات جميع الأفراد في التعبير عما يخطر في أفكارهم، ويساور خلدهم، ويختلج في نفوسهم. وكانوا قد ألبسوا في هذا الإطار العربية الفصحى لبوس وصفات التعقيد، والشدة والصعوبة، وعدم تلبيتها لرغبات جميع الأفراد في التعبير عما يخطر في أفكارهم، ويختلج في نفوسهم[36].

ولا يغرب عن الذهن أن الدعوة إلى العامية كانت مرتبطة بالاستشراق، إذ أصبحت من أهداف المستشرقين الذين اعتنوا أيما اعتناء بكتب اللحن، فراموا معارضة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم. وقد زعم بعضهم أن معظم الشعب لا يحسن الفصحى،

وأنه متى انطلق يكتب بلغته العامية الدارجة استطاع أن يبتكر ويبدع، ويساهم مع معظم أفراده في مختلف العلوم والفنون والآداب. ونقول: إذا لم تكن الفصحى - كما توهم هؤلاء- بعراقتها لغة علم، فأنّى لعامية هزيلة بلا قواعد فيها، ولا سعة أن تتحمل ذلك؟ و قد شهد بأثر اللغة الموحَّدة الموحِّدة في وحدة الامم كبار فلاسفتهم، ومنهم الفيلسوف الألماني الشهير فيخته الذي قال: « إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متينة، وإن كنا لا نراها، إن الحدود التي تستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات. ولعلنا ندحض ما ذهب إليه بعضهم من جمود اللغة فيما ألفيناه من كلام عالم الاجتماع ابن خلدون في مقدمته حيث ارتأى أن مسألة انحطاط اللغة يكون بانحطاط أهلها في الميدان العلمي والحضاري، غير أن الانحطاط الذي يقصده هذا العالم ليس الانحطاط الداخلي للغة من حيث قواعدها وأنظمتها، وإنما هو الانحطاط الخارجي للغة بالبعد عن استعمالها، وقصرها على الأدب، وهو ما ألمح إليه الدكتور صبحي الصالح في كتابه "دراسات في فقه اللغة".

وإذا كانت دعوى هؤلاء المستشرقين إلى العامية بحجة أن قواعد الفصحى معقدة كل التعقيد، وصعبة أشد الصعوبة، وبعيدة عن اللهجة، فليس كتب تيسير النحو واللغة عنا ببعيد، وذلك ضرب "المسائل الصغرى" للأخفش الأوسط، وكتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي، و"الإقناع" لأبي سعيد السيرافي، و"الحدود" للفراء، و"مقدمة في النحو" لخلف الأحمر، و"الضروري في صناعة النحو" لابن رشد الأندلسي، و"الواضح" للزبيدي. ولذا فقد كانت مجهودات الصنف الثاني من المستشرقين مغلفة بالإيجابية، ومغرقة في السلبية، ومنتهية إلى العدمية. أما الصنف الأول فقد تحرى الإنصاف والعلمية, والموضوعية إزاء دراسته لتراثناالغوي، فلا نغمط نتاجهم في هذه المجال.

المصادروالمراجع

1) ينظر ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة "شرق"، المجلد 10، ص 173- 179؛ ومجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، الجزء 1، مادة "شرق"، ص 480.

2) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006م، ص 39.

3) محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 48.

4) أحمد عبد الحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، بيرمنجهام، ط2، المنتدى الإسلامي، 1411هـ، ص 7-8.

5) مازن مطبقاني: الاستشراق، على موقع مركز المدينة المنورة للدراسات وبحوث الاستشراق: http://medina Center. org

6) ينظر مراد باهي: فكر تيسير النحو عند المستشرقين، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف محمد قندوز، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة الجيلالي اليابس- سيدي بلعباس، السنة الجامعية 1436-1437هـ/ 2015م- 2016م، ص 16.

7) ر. بارث: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص ص 11- 12.

8) مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص 17 عن معجم أكسفورد، ج2، ص 117.

9) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، دار التضامن للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1404هـ-1984م، ص ص 3- 4.

10) المصدر نفسه، ص 15.

11) محمد أركون ومكسيم رودنسون، وآلان روسيون، وبيرنارد لويس، وفرانسيسكو غابرييلي، وكلود كاهين: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد هاشم صالح، دار الساقي، ط3، 2016م، بيروت- لبنان، ص 201.

12) الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم، الجزائر، 2007م، ج1، ص ص 42- 43.

13) د. عبد المنعم السيد أحمد جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، كنوز المعرفة، عمان، الطبعة 1، 2016م، ص 27.

14) المصدر نفسه، ص 27. وقد كان المستشرق رينان في مؤلفه "تاريخ عام ومنهج مقارن للغات السامية" "Histoire générale et système comparé des langues sémitiques"، وقد ارتأى هذا البحاثة أن إبداع النحو العربي كان من خلال كتاب كل المسلمين، وهو القرآن الكريم، فالنحو جاء لحفظ لغة القرآن الموضوع الأساس الذي طرح من خلال النحاة الأوائل. وينظر فوك: تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا من بداية القرن العشرين، ترجمة: د. عمر لطفي العلم، دار قتيبة، دمشق، ص ص 213- 214.

15) ينظر د. شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، ص 20.

16) ينظر د. تمام حسان: الأصول دراسة إبيستيمولوجية لأصول الفكر اللغوي العري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م، ص ص 55- 56.

17) ينظر د. إبراهيم السامرائي: دراسات في اللغة، مطبعة الحاني، بغداد، 1961م، ص 13.

18) مراد باهي، فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص 71 عن د. عبد العال سالم مكرم: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ص 6.

19) أحمد أمين: ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969م، ج3، ص 293.

20) ينظر M.G. Carter. 1972 : Les origines de la grammaire arabe, REI, p 70.

21) Renan, E.. 1961 : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, première partie,6ème édition, paris, p 379.

22) Goldziher, I. 1877- 1994: On the history of grammar among the Arabs. Translated and edited by Devenyi, K. and Ivanyi, T. Benjamin. Amsterdam- Philadelphia, p 5.

23) Ibid., p 5.

24) A. Merx. 1991 : L'origine de la grammaire arabe, ble 3(2) : pp 16- 22.

وينظر د. عبد المنعم السيد أحمد جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص ص 25- 26.

25) M.G. Carter. 1972 : p70.

26) ينظر .Ibid p 72

27) المصدر نفسه والصفحة.

28) ينظر د. علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، الطبعة الثامنة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص 211.

29) ينظر مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص 81. عن إبراهيم السامرائي: فقه اللغة المقارن، ص 124.

30) ينظر كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، مطبوعات دامعة، الرياض، 1397هـ- 1977م، ص ص 100- 102.

31) ينظر المصدر نفسه.

32) برجستراسر جوتهلف: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلّق عليه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م، ص 116.

33) د. إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ط3، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، 1966م، ص 14.

34) حاتم صالح الضامن: بحث بعنوان: العامية والفصيحة في ندوة بعنوان: اللغة العربية والوعي القومي، من تنظيم مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، أبريل 1984م، والثانية جوان 1986م، بيروت- لبنان، ص 224.

35) المستعرب: جورج كولان، حول العامية في المغرب والأندلس، مجلة اللسان العربي، العدد 22، ص 72.

36) ينظر الميداني عبد الرحمن بن حسن حبنكة الدمشقي: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق والاستعمار، ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري، دار القلم، دمشق، ط8، 1420هـ/ 2000م، ص 358.